دار المشرق

المشرق الرقميّة

مجلّة إلكترونيّة تصدر مرّتين في السنة عن دار المشرق
العدد الثالث، كانون الأول ٢٠١٣

حبٌّ راهبة مهّدَ طريقَ العودة

الأب زياد هلال اليسوعيّ

لكلّ زمان كباره

في زمن الأزمات تخرج الكلمات عادةً متحرّرة من جملها الخجولة، لتكتب تاريخ بعض الشخصيّات التي تساهم في بناء المجتمع. تأبى إلّا أن تسبح عكس تيّار المفردات المبهمة، تُسطّر حواقًّا لصور أرّخت أزمنة وأماكن وممرّات، لأجيال وأجيال. هي الكلمات والمواقف مَن تصنع التاريخ، هي الفكرة النيّرة والصبر في العمل من يخلقان الواقع الذي لا يزول. ومنه ترانا نعود بالذاكرة إلى ماضينا نفتّش عن صور كثير من الأسماء، محاولين أن نجسّد وجودها ثانيةً، علّها تنقذنا في وقتنا العصيب، وإن لم نستطع مجاراتها تأتي المقولة لتسعفنا فنتعلّل بالقول حينها: إنّ لكلّ زمان رجاله. وفجأة صوت من داخل حمم نار حمص يناديك صارخاً، ولكلّ حاضر ولكلّ رسالة في قلب الأزمة نساؤها أيضًا، وإن لم تسمعه، يتأبّطك في رحلة ليست بسارّة في حواري تلك المدينة.

مُرسَلة من جبال لبنان إلى ربوع سوريا

أرسل جبل لبنان هديّة إلى جبال سوريا، راهبة شابّةً قدِمت كلّها نشاطًا وحيويّة، وكأنّها تحمل بذارًا نادرة في كفَّيها، فأينما حلّت يخضرّ المكان، وتُزهر أرضه، لأنّ الأرض الطيّبة تبقى بورًا إن لم تمتدّ إليها يدُ زارع يعزف لها عشق المكان، وينثر بها بذار الحبّ مجبولة بروح العطاء. هي الأخت "فالنتين صقر"، من راهبات "القلبَيْن الأقدسَيْن". قدمت سوريا فور انتهاء سني التكوين الأولى، وقُدِّر لها أن تكون أولى رسالاتها في هذه البلد. ومن يومها ضمّتها رياحها ولفحتها رائحة عطر وردها الجوريّ، فذابت في "ماء الزهر" الذي يسحر كلّ مَن شرب منه. ومن حينها لم تغادر راهبتنا خطوات المرسَلين والمرسَلات، ممَّن سبقوها وعبروا هذه البلاد، وبقيت حتّى يومنا تحمل أملًا وحبًّا لكلّ من حولها من الصغار والكبار.

بدأت مسيرتها في سوريا من حمص العام ١٩٥٢، بالعمل في المدارس والتربية بالتعاون مع الآباء اليسوعيّين. ذهبت بعدها إلى منطقة القدموس في محافظة طرطوس الساحليّة، وبعد عدّة سنوات من العمل ممرّضةً في مشفى القدموس، انتقلت الأخت فالنتين العام ١٩٥٩ إلى منطقة الدريكيش مع "الأب أنطون مساميري اليسوعيّ" لخدمة القرى في الجبال الغربيّة بهذه المنطقة الجبليّة، في بلدة "جنينة رسلان" وقرية "التفّاحة". فكانت رسالتها في خدمة التعليم المسيحيّ للقرى المجاورة. وإلى جانب التعليم الدينيّ المسيحيّ، عُرفت راهبتنا بفنّها في تعليم السيّدات الخياطة والنظافة وتربية الأطفال، فكانت قريبة للعائلات من كلّ الأديان والطوائف. تنقّلت كثيرًا بين القرى الجبليّة في تلك المنطقة، بالرغم من صعوبة المواصلات والطرقات، لم تكلّ عن تكملة رسالتها. يعرفها سكّان المنطقة هناك بالراهبة ذات الشكيمة القويّة والوجه البشوش. لا تفارقها الضحكة وحبّ المزاح. بعدها شاءت الأقدار أن تعبر من الجبال وقراها الجميلة إلى مدينة حمص العام ٢٠٠٧. ولشدّة عزيمتها، طُلب منها، وهي في سنّ

السادسة والسبعين (٧٦)، أن تدير "مركز المسنّين" في "حيّ باب السباع"، كي تساعدهم على العيش الكريم لعبور سنوات العمر الغابرة!

حيّ على صفيحٍ من نار

في بداية الأزمة بحمص، ترك كثير من الأهلين أحياءهم، وأوصدوا أقفال بيوتهم خلفهم، تاركين الشوارع والمحلّات التجاريّة. وفي إحدى حواري حمص، وفي أحد أحيائِها "حيّ باب السباع"، أظلمت منازل البيوت حزينة على مَن فارقوها. هناك بناء واحد فقط كان ينير طريق العابرين إلى الحيّ ليلًا، وأصوات قاطنيه تُطَمئِنُ قلوبَ قاصدي العودة. إنّه مركز رعاية المسنّين، تديره "راهبات القلبَيْن الأقدسَيْن". دمار لم يُعرَف سابقٌ له في الحيّ، وركام قمامة في كلّ مكان، وأصوات مدافع ورصاص تملأ الجوّ، ومعارك طاحنة كانت تدور حولهم. مع هذا، قرّرت مديرة المركز الأخت فالنتين البقاء، ترافقها أختها في الرهبانيّة نفسها الأخت "ماري ألبير كفوري". أصرّتا على خدمة النزلاء فيه من المسنّين والمرضى. إنّ موقفهما النبيل هذا جعلهما موضع ثقة واحترام من جميع الأطراف. عرفت الأخت فالنتين، ذات الاثنَين والثمانين عامًا اليوم، بحكمتها وحنكتها، أن تحمي المبنى وقاطنيه على قدر ما أوتيت من الشجاعة والقوّة. تارةً تتحدّى وتتوعّد، وطورًا تُفاوض وتحاجج. هكذا، وبفضل شجاعتها، استطاعت أن تحمي أكثر من خمسةٍ وثلاثين عاجزًا ومُسِنًّا من زمهرير البرد القارس في الخارج، أو من اللجوء إلى مكانٍ غير آمن لا يستطيعون العيش فيه بعد أن فقدوا الاتّصال بأقربائهم.

صلاة وأمل ورجاء

لم تكن تكفّ عن الاتّصال وبشكلٍ مكثّف، كلّ يوم سبت، بالآباء اليسوعيّين جيرانها، تطلب إليهم القدوم إلى المركز لتأمين قدّاس يوم الأحد صباحًا. لم يكن يهمّها لا اشتداد المعارك ولا تجمهر المتحاربين. وإصرارها هذا جعل الكهنة يجازفون هم أيضًا ليُصَلّوا معها ومع الحاضرين. ومن قعر الغضب والعنف

والكراهية في حيّ عرف أشدّ أنواع الاقتتال، كان يُسمعُ صوت ترانيم راهبتَيْن يعلو صوت القصف والرصاص، ترتّلان لربّ العالمين طالبتَيْن سلامًا لوطنٍ أصبح وطنهما، وسائلتين الأمان لشعبٍ أضحى جزءًا من تاريخهما. من نوافذ الكنيسة الخارجيّة كانت تتصاعد أصوات أناس يتقاتلون في الشوارع، يتنازعون فيما بينهم، وفي الوقت نفسه، كان الحيّ يعبق ببخور صلوات المصلّين من المسنّين والعاملين في المركز، يشحذون همم القدير، طالبين منه الصفح والغفران، علّ صلواتهم تساعد على تبريد سبطانات البنادق وفوّهات المدافع. وحده إيمانهم جعلهم يصمدون كلّ هذه المدّة من الزمن، على الرغم من انقطاع التيّار الكهربائيّ طوال ساعاتٍ وأيّام، ونُدرة المازوت للتدفئة، وتحمّل روائح القمامة المحيطة بهم، وعلى الرغم من أمور كثيرة لن يفهمها إلّا مَن عبر طرقات ذاك الحيّ الذي تناثرت ذكرياتُه على ضفاف الوطن، تستصرخ العودة إلى حواريه، وتستنجد بما تبقّى من حجارة أن اثبتوا ليوم اللقاء القريب.

غصن رجاء في حديقة الأشباح

غريبة الراهبة بنت الجبل هذه في عنفوانها، وفي شدّة وزرها. زرعت في أرض المعركة حبًّا جعل الكثير من أهل الحيّ يسمعون لحنه فيعودون إلى بيوتهم؛ ومهّدت طريقًا حمل الغرباء عن الحيّ على الوقوف جافلين أمام جرأة الموقف؛ وأنارت مصباحًا لكلّ طالب عودة حتّى لا يتيه في تشعّبات الأزمة الطاحنة، فطغى جمال سرّ هذا المركز على كلّ ألوان خربشات المعارك في الحيّ. لم تتغيّر مواقفها في حبّ القريب والبعيد، ولم تتوانَ عن استقبال المعوَز المسنّ المتضرّر. صراعها لم يكن مع البشر بقدر ما كان مع الشرّ. غلبته، نعم، حين قرّرت مع زميلتها المكوث في حديقة أشباحه، تسقي شجيرات الأمل التي ستثمر في موسم الرجاء، حاملةً ثمار السلام والمحبّة والوفاق.